

المُسْلِمُ مَعَ أَوْلَادِهِ

تمهيد:

الأولاد قرة عين الإنسان في حياته، وبهجته في عمره، وأنسه في عيشه، بهم تحلو الحياة، وعليهم بعد الله تعلق الآمال، وببركتهم يُستجلب الرزق، وتنزل الرحمة، ويضاعف الأجر.

بيد أن هذا كله منوط بحسن تربية الأولاد، وتنشئتهم نشأة الصالحة التي تجعل منهم عناصرَ خير، وعواملَ برٍّ، ومصادرَ سعادة. فإن توافر للإنسان في أولاده هذا كله كانوا بحق زينة الحياة الدنيا، كما وصفهم الله عزَّ وجلَّ بقوله: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ (١).

ولهذا كان من دعوات النبي الصالحات لَمَنْ يَحِبُّ: الإكثارُ من المال والولد؛ فقد روى أنس رضي الله عنه أنه دخل على النبي ﷺ، ومعه أمه وخالته، فصلى بهم النبي ﷺ، ثم دعا لهم بكل خير. فقالت أم أنس: يا رسول الله، خَوِّدْمُكَ، أَدْعُ اللَّهَ لَهُ، فدعا له بكل خير، وقال في آخر دعائه: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ» (٢).

أما إذا غفل الوالدان عن تربية الأولاد وتوجيههم الوجهة الصالحة كانوا بلاءً ونكدًا وَعَتْنَا وشقاءً وهماً واصباً، وراه السهرُ في الليل والتعب في النهار.

(١) الكهف: ٤٦.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

يُدرِكُ مَسْئُولِيَّتَهُ الْكُبْرَى إِزَاءَ أَوْلَادِهِ :

والمسلم الحق الواعي يدرِكُ مَسْئُولِيَّتَهُ الْكُبْرَى إِزَاءَ أَوْلَادِهِ الَّذِينَ نَجَلَهُمْ وَقَدَّمَهُمْ لِلْحَيَاةِ ، إِذْ يَسْمَعُ صَوْتَ الْقُرْآنِ يَهْتَفُ بِهِ :

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفُسُهُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (١)

وَإِذْ يَسْمَعُ صَوْتَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ يَضَعُهُ أَمَامَ مَسْئُولِيَّتِهِ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ :

«كُلُّكُمْ رَاعٍ ، وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ» (٢) .

إنها المسؤولية الشاملة التي طَوَّقَ بِهَا الْإِسْلَامُ أَعْنَاقَ أَبْنَاءِ الْحَيَاةِ جَمِيعًا ، فَلَمْ تَغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ، وَجَعَلَ بِمَقْتَضَاهَا الْوَالِدِينَ مَسْئُولِينَ عَنْ تَرْبِيَةِ أَوْلَادِهِمَا تَرْبِيَةً إِسْلَامِيَّةً دَقِيقَةً ، وَتَشْتَتُهُمُ النَّشْئَةُ الصَّالِحَةُ ، الْقَائِمَةُ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ الَّتِي أَخْبَرَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ أَنَّهُ مَا بُعِثَ إِلَّا لِتَمِيمِهَا وَتَأْصِيلِهَا بَيْنَ النَّاسِ إِذْ قَالَ :

«إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ» (٣) .

وَلَيْسَ أَدَلَّ عَلَى عَظَمِ مَسْئُولِيَّةِ الْوَالِدِينَ تَجَاهَ أَبْنَائِهِمَا ، وَتَشْتَتِهِمُ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ وَرِسُولِهِ وَامْتِثَالِ أَمْرِهِمَا ، مِنْ تَقْرِيرِ الْعُلَمَاءِ : أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ يَسْمَعُ قَوْلَ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ : «مُرُوا أَوْلَادَكُمْ بِالصَّلَاةِ ، وَهُمْ أَبْنَاءُ سَبْعِ سِنِينَ ، وَأَضْرِبُوهُمْ عَلَيْهَا ، وَهُمْ أَبْنَاءُ عَشْرِ . . .» (٤) ، إِنَّ كُلَّ بَيْتٍ يَسْمَعُ هَذَا الْحَدِيثَ وَلَا يَأْمُرُ

(١) التحريم : ٦ .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد ، والإمام مالك في الموطأ ، والإمام أحمد في المسند .

(٤) رواه أحمد وأبو داود ، وإسناده حسن .

الأولادَ بالصلاة متى بلغوا السابعة من العمر، ولا يضربهم على تركها متى بلغوا العاشرة، هو بيت مقصّر مفرط، الوالدان فيه آثمان مسؤولان أمام الله عن هذا التقصير وذلك التفريط.

ذلك أن البيت هو المحضن الذي تَرِيشُ فيه الفِرَاحُ الزُّعْبُ، وهو البيئَة الأولى التي يترعرعون فيها، وهو الوسط الذي تتكوّن فيه ميولهم وأمزجتهم وشخصياتهم. ومن هنا يبدو دور الوالدين الكبير في تعهّد تلك البراعم الغضة الغضيرة، ومدّها بالغذاء النافع، والتوجيه الأصيل الذي يربّي فيها الجسم والعقل والروح على السواء.

يَسْتَحْدِمُ فِي تَرْبِيَّتِهِمْ أْبْرَعَ الْأَسَالِيبِ :

والوالد المسلم الحصيف - وأعني بالوالد كلاً من الوالدين الأب والأم - يدرك نفسيات أطفاله، فيحسن التأتّي إليها، والتوغّل في عوالمها الصافية البريئة، مستخدماً في سبيل صياغتها وتوجيهها أبرع الأساليب.

إنه يتحبّب إليهم بشتى الوسائل، فيدنو منهم، ويراعي مستواهم العقلي والزمني، فيلاعبهم، ويجاملهم، ويمازحهم، ويسمعهم من كلمات المحبة والإيثار والحَدَب ما تبهج به نفوسهم فإذا هم يحبونه، ويقبلون على سماع توجيهه بلهفة وحرارة وصدق، وإذا طاعتهم له وامثالهم أمره نابعان من القلب، وشتان ما بين طاعة قائمة على الحب والاحترام والتقدير والثقة، وبين طاعة قائمة على العنف والقهر والكبت والانصياع الزجري، فالأولى طاعة دائمة وطيدة والثانية طاعة موقوتة هشة، سرعان ما تزول وتتلاشى بزوال الشدّة والعنف والزجر، أو بغيبابها إلى حين.

وقد يظن بعض الناس أن تبسّط الوالد مع أولاده ومخالطته إياهم يخلّ بأبوته في أعينهم، ويزري بمقامه التربوي في نظرهم، وهذا خطأ محض؛ فإن هذا الخلق الكريم مع الأولاد هو الأسلوب التربوي الحكيم الناجح الذي

تدعو إليه اليوم التربية الحديثة، وقد دعا إليه الرسول ﷺ منذ خمسة عشر قرناً بقوله وفعله .

فقد كان ﷺ يصف عبد الله وعبيد الله وكثيراً بني العباس رضي الله عنهم، ثم يقول: «مَنْ سَبَقَ إِلَيَّ فَلَهُ كَذَا وَكَذَا، فَيَسْتَبِقُونَ إِلَيْهِ فَيَقْعُونَ عَلَى ظَهْرِهِ وَصَدْرِهِ فَيُقْبَلُهُمْ»^(١).

وأخرج البخاري في الأدب المفرد والطبراني عن أبي هريرة أن النبي ﷺ أخذ بيد الحسن أو الحسين رضي الله عنهما، ثم وضع قدميه على قدمه، ثم قال: «تَرَقَّ» .

وتتجلى روح الرسول المرابي العظيم أكثر ما تتجلى في حملة الحسن والحسين رضي الله عنهما، وترققه بهما، وحنوه عليهما، ضارباً المثل للأبء والأجداد في كل زمان ومكان، ليكونوا على خُلُقٍ رضيّ كريم مع تلك الغرسات اللدنة الغضة، مهما كانوا عليه من وقار ومكانة وقدر؛ وذلك في الحديث الذي رواه أحمد والنسائي عن شدّاد، قال: خرج النبي ﷺ وهو حامل حسناً أو حسيناً، فتقدم فوضعه، ثم كَبَّرَ في الصلاة، فسجد سجدة أطالها، فرفعت رأسي فإذا الصبي على ظهره، فرجعت في سجودي، فلما قضى صلاته قالوا: يا رسول الله، إنك أطلت، قال: «إِنَّ ابْنِي ارْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلُهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ»^(٢).

هكذا ينبغي أن يكون شأن المسلم مع أولاده، يخالطهم، ويترقق بهم، ويحنو عليهم، ويمازحهم، ويدخل على قلوبهم السعادة والغبطة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وما وجد من وقته فراغاً وسعة.

(١) رواه أحمد. وقال الحافظ في التهذيب ٤٢١/٨: وهو مرسل جيد الإسناد.

(٢) رواه أحمد والنسائي بإسناد صحيح.

يُشْعِرُهُمْ بِحُبِّهِ وَحَنَانِهِ :

وإن من أولى واجباته الأبوية أن يشعرهم بالرحمة والحنان والعطف والحب، لينشأوا نشأة نفسية صحيحة، تعمر قلوبهم الثقة، ويشيع في نفوسهم الصفاء، ويغمر أخيلتهم التفاؤل.

والرحمة خلق إسلامي أصيل، كان من أبرز خلائق الرسول الكريم وشماله الرفيعة، كما حدثنا أنس رضي الله عنه إذ قال: «ما رأيت أحداً كان أرحمَ بالعيالِ من رسول الله ﷺ»، قال: كان إبراهيم مُسْتَرْضِعاً له في عوالي المدينة، فكانَ ينطلقُ، ونحنُ معه، فيدخلُ البيتَ، فيأخذُه فيقبَلُه، ثم يرجعُ»^(١).

وتسع رحمة الرسول الكريم بالبراعم المسلمة المتفتحة، ويمتد رواقها الظليل فيشمل الصغار وهم يلعبون، فإذا هو يغمرهم بعطفه وحنانه، كما يروي أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان كلما مر بصبيان هشَّ لهم وسلم عليهم^(٢).

وكان من أقواله التربوية الخالدة: «ليسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيَعْرِفْ حَقَّ كَبِيرِنَا»^(٣).

ويروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قبِلَ الحسن بن علي، فقال الأقرع بن حابس: إنَّ لي عشرةً من الولدِ ما قبَلْتُ منهمُ أحداً، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمْ لَا يُرْحَمْ»^(٤).

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أحمد والحاكم، وإسناده صحيح.

(٤) متفق عليه.

لقد كان الرسول المرابي العظيم يحاول دوماً، وهو يصوغ النفوس أن يفجّر فيها ينابيع الرحمة، ويفتح كوامنها على الحب والحنان، أخصّ خصائص الإنسان.

جاءه يوماً أعرابي فقال: أتقبلون صبيانكم؟ فما نقبلهم. فقال النبي ﷺ: «أَوْ أَمْلِكُ لَكَ أَنْ نَزَعَ اللَّهُ مِنْ قَلْبِكَ الرَّحْمَةَ؟»^(١).

وتروي السيدة عائشة أم المؤمنين: «أن فاطمة كانت إذا دخلت على النبي ﷺ قام إليها، فرحّب بها، وقبلها، وأجلسها في مجلسه. وكان إذا دخل عليها قامت إليه، فأخذت بيده، فرحّبت به، وقبلته، وأجلسته مجلسها. وأنها دخلت عليه في مرضه الذي توفّي فيه، فرحّب بها، وقبلها»^(٢).

إن المسلم الصادق لا يملك إزاء هذا الهدّي النبوي العالي أن يكون متجهماً لأولاده، جافاً في معاملتهم، فظاً في مخاطبتهم، حتى ولو كان في طبعه جفاء، وفي خلقه جفاف وكرازة؛ ذلك أن هذا الدّين بما جاء به من هُدَى منير، يرقق القلب، ويفجّر ينابيع الحنان، ويذكي أوار الحب، فإذا الأولاد قطع من القلب تسعى على الأرض، كما قال الشاعر^(٣):

وإنما أولادنا بيننا أعبادنا تمشي على الأرض
إن هبّت الرّيح على بعضهم تمتنع العين من الغمض

وإذا الوالدان ذوب عاطفة، ودقّة حنان، وموجة رعاية وتضحية واحتضان.

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) البيتان في شرح الحماسة للبريزي ٢٧٥/١ لطحان بن المعلّى.

يُنْفِقُ عَلَيْهِمْ بِسَخَاءٍ وَطِيبِ نَفْسٍ :

على أن الإسلام لا يكتفي بعاطفة الوالدين الفطرية وحنانهما على الأولاد، إذ ربما يعرض في الحياة ما يلهي عن الولد، ويصرف الوالدين أو أحدهما عن التضحية في سبيله بطيبات الحياة، أو تقسو الأيام، ويخشن العيش، ويستحكم الإملاق، فيتذمر الوالدان أو أحدهما من ثِقَلِ التُّبَعَاتِ، وفداحة الأعباء، وبَهْظِ النفقات؛ ولهذا كله رُفِدَ الإسلامُ عاطفةَ الوالدين الفطرية بما أعدّه لهما من ثواب عظيم، تهون أمامه التضحيات، ويصغر العذاب ويتلاشى البؤس والإملاق.

عن أُمِّ سَلَمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَلْ لِي أُجْرٌ فِي بَنِي سَلَمَةَ أَنْ أَنْفَقَ عَلَيْهِمْ، وَلَسْتُ بِتَارِكِيهِمْ هَكَذَا وَهَكَذَا؟ إِنَّمَا هُمْ بَنِيَّ، فَقَالَ: «نَعَمْ لَكَ أُجْرٌ مَا أَنْفَقْتَ عَلَيْهِمْ»^(١).

وعن أَبِي مَسْعُودِ الْبَدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، يَحْتَسِبُهَا»^(٢)، فَهِيَ لَهُ صَدَقَةٌ»^(٣).

بل إن الإسلام ليُجْعَلِ النِّفْقَةَ عَلَى الْأَهْلِ وَالْعِيَالِ أَفْضَلَ وَجْهَ النِّفْقَةِ وَأَعْظَمَهَا أُجْرًا، نَرَى مُصَدِّقَ ذَلِكَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مُسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أُجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ».

(١) متفق عليه.

(٢) أي يقصد بها وجه الله والتقرب إليه.

(٣) متفق عليه.

وفي رواية أخرى لمسلم: «أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى دَائِبَتِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَدِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى أَصْحَابِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

وإن نفس المسلم الحق الصادق لتطيب وترتاح وتسعد بالنفقة على العيال، إذ تستيقن أن ما من نفقة ينفقها المسلم على عياله أو غيرهم، يبتغي بها وجه الله إلا أعظم الله له فيها الأجر، حتى اللقمة يرفعها الرجل إلى فم امرأته متودداً ملاطفاً مداعباً، له فيها أجر، يؤكد ذلك الحديث الذي رواه سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال له: «وإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ بِهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِي أَمْرَاتِكَ»^(١).

والمسلم الصادق لا يستطيع أن يتخلى عن عياله، ويجعلهم في فاقة وعسر وضيق، وهو يسمع صوت الرسول العظيم يهتد الرجال المتخلفين عن مسؤولياتهم العائلية، وينذرهم بأوخم العواقب، وأشد أنواع الإثم والعقاب: «كَفَى بِالْمَرْءِ إِنْمَاءً أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ»^(٢).

لَا يُفَرِّقُ فِي حُنُوهٍ وَنَفَقَتِهِ بَيْنَ الْبَيْنِ وَالْبَنَاتِ :

وقد يضيق بعض الناس ذرعاً بالبنات، ويتمنون لو أن الله ما رزقهم سوى الصبيان، ولم يَدْرِ هَوْلَاءَ الثَّوَابِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَعَدَّهُ اللَّهُ لِلْوَالِدِ الَّذِي رَزَقَهُ الْبَنَاتِ، فَصَبَرَ عَلَيْهِنَّ وَأَحْسَنَ تَرْبِيَتَهُنَّ، وَفَاضَتْ نَفْسُهُ بِالْحَنَانِ عَلَيْهِنَّ. وَلَوْ عَلِمُوا هَذَا الثَّوَابَ الَّذِي يَنْتَظِرُ أَبَا الْبَنَاتِ الْكَافِلَ الرَّحِيمَ لَغَبَطُوهُ عَلَيْهِ، وَتَمَنَّوْا لِأَنْفُسِهِمْ مِثْلَهُ.

(١) متفق عليه.

(٢) رواه مسلم وأبو داود وغيرهما.

يقول الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ، فَصَبَّرَ عَلَيْهِنَّ، وَأَطْعَمَهُنَّ وَسَقَاهُنَّ وَكَسَاهُنَّ مِنْ جَدَّتِهِ، كُنَّ لَهُ حِجَابًا مِنَ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١).

وفي رواية: «مَنْ كَانَ لَهُ ثَلَاثُ بَنَاتٍ يُؤْوِيَهُنَّ، وَيَكْفِيَهُنَّ، وَيَرْحُمُهُنَّ، فَقَدْ وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ الْبَتَّةَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَعْضِ الْقَوْمِ: وَائْتَيْنِ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَائْتَيْنِ».

فأي أب يتأفف من تربية البنات والإنفاق عليهن بعد أن يسمع ما أعدّه الله له من أجر ونعيم؟.

ويلحظ الإسلام، وهو دين الحياة الذي يعالج واقع الناس ومشكلاتهم في كل زمان ومكان، أن البنت قد تُطَلَّق وتعود إلى بيت أبيها، وقد يكون أبوها في عسر وفاقة وضيق، من قلة في الدخل، أو كثرة من الولد، فيضع له الإسلام البلسم الشافي لجراح نفسه المعذبة المكدودة، ويقشع عنها ما يساورها من هم ونصب وعذاب، إذ يبيّن لهذا الوالد ذي العيلة أن إنفاقه على بنته المردودة إليه من أعظم الصدقات وأقرب القربات إلى الله.

يقول الرسول الكريم ﷺ لسراقة بن جعشم: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَعْظَمِ الصَّدَقَةِ، أَوْ مِنْ أَعْظَمِ الصَّدَقَةِ؟» قال: بلى، يا رسول الله! قال: «ابنتك مردودة إليك، ليس لها كاسبٌ غيرك»^(٢).

فأين هذا الرُّبِّي العاطفي النبيل الذي يحظى به الأولاد في دنيا الإسلام من جفاف الحياة المادية الذي يعانیه الأولاد في الغرب، إذ ما يكاد الولد، صبيّاً كان أو بنتاً، يكمل الثامنة عشرة من عمره حتى يخرج من محضن أبويه الدافئ، ليلقى الحياة المادية القاسية، ويواجه أعاصير الكسب، ولمّا يشتدّ عودُهُ، ولمّا ينهل من منهل الحنان العائلي ما يرويه!!.

(١) رواه أحمد في مسنده بإسناد صحيح.

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد.

إنه الفرق البعيد الشاسع بين تشريع الله الذي جاء لسعادة الإنسان، وتشريع البشر القاصر الذي شقي به الإنسان.

ولا بدع أن نجد في الغرب، نتيجة لهذا التشريع المادي، جيوش المنحلين التائهين من الشبان، وجموع العاثرات من الأمهات غير المتزوجات من الفتيات البائسات الضائعات، وأعداد هؤلاء وأولئك في تصاعد مستمر على مر الأيام.

مُفْتَحُ الْعَيْنَيْنِ عَلَى كُلِّ مَا يُؤَثِّرُ فِي تَكْوِينِهِمْ وَتَوْجِيهِهِمْ :

والوالد المسلم الواعي مفتح العينين على أولاده، يعرف ما يقرأون وما يكتبون، ويعرف هواياتهم التي اختاروها لأنفسهم، أو لفتهم هو إليها ونماها فيهم من حيث لا يشعرون، ويعرف رفاقهم الذين يلازمونهم، أو يقضون معهم معظم الأوقات، ويعرف الأماكن التي يرتادها أولاده في أوقات الفراغ، يعرف هذا كله من حيث لا يشعرون برقابته عليهم، فإذا ما وجد انحرافاً منهم في مطالعة، أو هواية، أو تعلق برفيق سوء، أو ارتياد لأماكن مشبوهة، أو اعتياد بعض العادات الضارة كالتدخين، أو العكوف على الألعاب المكروهة أو المحرمة، مما يقتل الوقت، ويهدر الطاقة، ويعود الناشئ على الفراغ واللهو والتفاهة، إذا ما آنس الوالد شيئاً من ذلك في أولاده، ردهم إلى الجادة برفق وحكمة وحزم، وسددهم إلى الصواب بلباقة وإقناع وجداً.

ذلك أن كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما جاء في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري.

ومن هنا تبرز مسؤولية الوالدين في صياغة عقل المولود وتكوين شخصيته وتربية نفسه بملاحظة العوامل التربوية المؤثرة المذكورة آنفاً.

فالكتاب الذي يعكف على مطالعته الأولاد ينبغي أن يكون مفتحاً

لأذهانهم، مكوّناً لنفوسهم على مكارم الأخلاق، مزوّداً شخصياتهم بالمثل العليا، لا أن يكون مغتالاً لعقولهم، مفسداً لِفطْرِهِم، مطفئاً جَدَواتِ الخير في نفوسهم.

والهوايات ينبغي أن تكون منمّية جوانب الخير في نفوسهم لا جوانب الشرّ، مشعّلةً جمرات الحق في أفئدتهم لا جمرات الباطل، مربّيةً فيهم الذوق السليم لا الذوق السقيم.

والرفيق ينبغي أن يكون قائداً إلى الجنة لا إلى النار، مرشداً إلى الحق لا إلى الباطل، هادياً إلى الرشد والتسامي والنجاح والبر، لا إلى الغي والهبوط والخيبة والعقوق، وكم من رفيق جرّ رفاقه إلى مزالق السوء ومنحدرات الشرّ ومهاوي الرذيلة، والآباء عن أولادهم غافلون، وما أحكم قول الشاعر عديّ بن زيد العباديّ في الصاحب والقرين^(١):

إذا كنتَ في قومٍ فصاحبٌ خيارُهُمُ ولا تصحبِ الأردى فتردى مع الردي
عن المرء لا تسألَ وسلْ عن قرينه فكلُّ قرينٍ بالمُقارنِ يقتدي

وهكذا فعين الوالد المسلم الواعي تلحظ في تربيته لأولاده الكتاب والمجلة والرفيق والهواية والمدرسة والأساتذة والنادي ووسائل الإعلام، وكلّ ما له تأثير في تكوين شخصيات أولاده وتربية عقولهم ونفوسهم وعقيدتهم، وتتدخل عند اللزوم سلباً أو إيجاباً، كيلا تتعرّض العملية التربوية للأولاد، أو تُصاب بعراقيل أو أمراض أو مشوّهات.

ومن هنا نستطيع تفسير نجاح بعض الأسر في تربية أبنائها، وإخفاق بعضها، فالأسر الأولى شعرت بمسؤوليتها إزاء أولادها، فأولتْهم عنايةً، فكانوا خيراً عليها وعلى المجتمع والناس، والثانية لم تشعر بمسؤوليتها هذه،

(١) ديوان عدي: ١٠٧.

فأهملتكم، فكانوا شراً واصباً عليها وعلى المجتمع والناس، وبلاءً يلاحقها في هذه الحياة وبعد الممات، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ (١).

وما كان الأولاد ليكونوا أعداءً لأبائهم لو أن الآباء استقاموا على الطريقة، وعرفوا مسؤولياتهم إزاء أولادهم، وقاموا بتبعاتها حق القيام.

يُسَوِّي بَيْنَهُمْ :

ومن أسلوب التربية الحكيم للأبناء التسوية بينهم، وعدم تفضيل أحدهم على الآخر في الأمور كلها، ذلك أن الولد الذي يشعر بالتسوية والعدل بينه وبين إخوته ينشأ صحيح النفس، بريئاً من عقد النقص، لا يحقد على إخوته، ولا تآكل قلبه الغيرة والحسد، بل يشيع في نفسه الرضا والتسامح والإيثار والبرّ وحب الغير، وهذا ما حضّ عليه الإسلام، وأمر به الوالدين.

روى الشيخان عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال: إني نَحَلْتُ ابني هذا غلاماً كان لي. فقال رسول الله ﷺ: «أَكُلْ وَلَدِكَ نَحَلْتَهُ مِثْلَ هَذَا؟» فقال: لا، فقال رسول الله ﷺ: «فَارْجِعْهُ»، وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «أَفَعَلْتَ هَذَا بَوْلَدِكَ كُلَّهُمْ؟ قال: لا، قال: «اتَّقُوا اللَّهَ وَاعْدِلُوا فِي أَوْلَادِكُمْ»، فرجع أبي فردت تلك الصدقة. وفي رواية: فقال رسول الله ﷺ: «يَا بَشْرُ، أَلَيْكَ وَكَذَّ سِوَى هَذَا؟»، قال: نعم، قال: «أَكُلْتَهُمْ وَهَبْتَ لَهُ مِثْلَ هَذَا؟» قال: لا، قال: «فَلَا تُشْهَدْنِي إِذَا، فَلَيْتِي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ»، ثم قال: «أَيْسُرُكَ أَنْ يَكُونُوا لَكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟» قال: بلى، قال: «فَلَا إِذَا» (٢).

(١) التغبان: ١٤.

(٢) متفق عليه.

ومن هنا كان المسلم التقى عادلاً بين أولاده، لا يفضّل أحدهم على الآخر في هبة أو نفقة أو معاملة، وبذلك تلهج ألسنتهم جميعاً بالدعاء له، وتحقق قلوبهم بحبه، وتعمر نفوسهم ببرّه وإجلاله وإكباره.

يَغْرِسُ فِيهِمُ الْأَخْلَاقَ الْعَالِيَةَ :

وبهذه النفوس الطافحة بالبشر والرضا والقناعة والبرّ، يستطيع الوالد أن يرقى بأولاده صُعُداً في مدارج المُثُل العُلَيَا والمكارم الإنسانية الرفيعة، فيغرس فيهم الأخلاق العالية من حبّ للآخرين، وحبّ على الضعفاء، وحبّ للأرحام، واحترام الكبير، ورحمة بالصغير، وارتياح لفعل الخير، ورغبة في إشاعة العدل بين الناس، وما إلى ذلك من مكارم الأخلاق؛ ذلك أن الخير لا يندفع إلّا من النفوس التي ارتوت منه، وفاقد الشيء لا يعطيه، وصدق مَنْ قال: «الصَّلاحُ مِنَ اللَّهِ، وَالأَدبُ مِنَ الآبَاءِ»^(١).

إن الوالد المسلم الحصيف يعرف كيف يتسرّب إلى نفوس أبنائه، ويغرس فيها الحكمة والخلق القويم، مستخدماً في ذلك الأساليب التربوية الحكيمة، من قدوة مثلى مَحَبِّية، وتبسّط ومخالطة وحسن تعهّد، ورحمة وتواضع وبشر، وحب واهتمام وتشجيع، وعطف ومساواة وعدل، ونصح وتسيّد وإرشاد، في لين من غير ضعف، وشدة من غير عنف، وبذلك ينشأ الأولاد في جوّ كُله برّ ورعاية وحنان، ومثل هذا الجوّ لا بدّ أن يعطي أولاداً أبراراً، أوفياء، صالحين، أسوياء الشخصية، مفتّحي الأذهان، قادرين على العطاء، مُهيّئين لتحمل المسؤوليات. وهذا بدّه في كل أسرة تربّت على مبادئ الإسلام، وتأدّت بأدب القرآن، وصدق الله العظيم: ﴿صَبَغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبْغَةً؟﴾^(٢).

(١) الأدب المفرد للبخاري: ٩٢.

(٢) البقرة: ١٣٨.